التربية الوطنية الاستقلالية

وأثرها فى بناء الأمة

للأستاذ محمد عبد البارى

عماد الامة

عماد الأمة أفرادها . ومتى كانت مواد البناء متينة التكوين سليمة الوضع كان البناء قوياً على احتمال تصاريف الأيام ، والتغلب على صدمات الحادثات . وما مادة البناء فى الجماعة سوى الفرد . فكيف يكون قوياً لتقوى به الأمة ؟

مشاهدات الحاضر

يلوح لى أن استعراض الوقائع لاستخراج الحقائق أقرب سبيلاً إلى صحة الحكم ، وآمن عاقبة من التحليل النظرى المجرد . وأخذا بهذا فانى أضرب بالانجليز مثلاً للأمة القوية . وأحاول باستعراض بعض الظواهر للوصول إلى سر هذه القوة . وإنى إذ أفعل هذا لست مأخوذاً بقوة المسيطر ، ولكنى إنما أتعرف سر قوة الغير لنحتذى مثاله ، ومن قبل احتكت اليابان من نحو خمسة وثمانين عاماً بالغرب ، وآنست منه قوة لاقبل لها بها فداورته ، ثم حرصت على تعرف سر قوته واتخذت سبيله . فلما أحست من نفسها القوة تحررت مما فرض عليها الغرب من قيود ، ثم صارت موضع خشيته ورهبته . والقوى يتقى دائماً التصادم بالقوى .

من أشهر حوادث التاريخ الدستورى ما يسميه الانجليز بالعهد الأعظم ؛ وهو مجموعة قواعد غير منمقة ؛ هى فى الواقع شروط يتقيد بها الحاكم ، وهى تنبئ عن روح استقلالية أصيلة ، ودرجة حرص القوم على المحافظة على ذلك العهد تؤكد أنه وضع عن عقيدة ، وأنه يعبر عن شعور الأمة بحقها وكرامتها وقوتها . فلما هوجم دافعت عنه الأمة عن عقيدة راسخة فانتصرت . حدث أن أحد ملوك انجلترا ، وكان متشبعاً بتعاليم الفيلسوف الانجليزى « هوبز » تنقض ذلك العهد باصدار أوامر تخالفه . غير ان أحد الكافة أبى أن يعترف بحق الملك فى المخالفة ، فامتنع عن تنفيذ الأمر . فلما أوذى المعترض ثارت الأمة ، وتخلصت من ناقضى عهدها استمساكا بدستورها ومحافظة على كرامتها

والمعترض لم يصدر إلا عن عقيدة . وكان مستقل الرأى أبىّ النفس شجاعا بدليل أنه لم يرهب جسامة ما أقدم عليه . ولم يك بالشاذ فى بلده بدليل أن سواد الشعب جاراه وانتصر للحق إلى النهاية . وهذا العمل الخطير لا يمكن أن تأتيه جماعة إلا إذا كانت الروح الاستقلالية قوية فيها ، وكان الشعور بكرامة الانسان غالباً فى أفرادها والاعتداد بالنفس صفة غالبة فى بنيها . كان الفيلسوف « هوبز » ينادى بحق الملك المقدس فى الحكم طبقاً لمشيئته لا استنادا إلى إرادة الأمة . وكان مربياً للملك المشار اليه ، ولكن النفسية الانجليزية لم تهضم هذه التعاليم ؛ وكان يعجبها ما قرره الفيلسوف « لوك » ؛ وهو أن الأمة مصدر السلطات ، وأن الملك يستمد سلطته منها ، وليس صاحب حق مقدس يحكمها طبقاً لهذا الحق المقدس فلا يتقيد بارادتها . فلما تعارضت الفكرتان عملا كانت الغلبة لما يدين به سواد الانجليز ، لأن تربيتهم الاستقلالية أبت عليهم الخضوع لما لا يتفق مع الكرامة الانسانية ، فثاروا دفاعاً عنها وانتصروا لأنهم عملوا عن إيمان راسخ

التربية الاستقلالية مصدر الشجاعة الأدبية والاقدام والشجاعة توحى للمرء بأن يقول « لا » كلما وجب أن يقولها ، و « نعم » كلما وجب أن يقولها ، سواء أكان مخاطباً نفسه أم غيره . والاقدام يدفع المرء الى العمل بما يعتقد مهما كانت النتيجة وقد دلت التجارب على أن العامل عن عقيدة قلما يخفق لأن الايمان الراسخ فى ذاته قوة يعز التغلب عليها

لو لم تكن روح الاستقلال متغلغلة فى نفوس الانجليز لرسخت فيها تعاليم « هوبز » دون تعاليم « لوك » ، ولم تقض العهد وهو الدستور كأنه حادث عادى ، ولاعتاد الحكام التصرف طبقاً لمشيئتهم ، ولكانت الجماعة عرضة من حين لآخر ، للاحتكاك بين أنصار الطغيان وأعوان الحرية ، ولبطؤ سيرها الى الأمام

لكن النفوس كانت متشبعة بالحرية والاستقلال فد عما وضمنته من شروط لتولى حكمها . وأظهرت وجو ـــس

بعملها التاريخى . وعرف الحكام منها ذلك فلم يحاولوا نقض العهد وعاشت وعاشوا فى هدوء . فاستطاعت الأمة التمتع ببركة الهدوء فى ظل الحرية ، وانصرفت بكل قواها الى ترقية شؤونها ورفع مستوى الفرد فبلغت قمة المجد ، وكانت عزيزة الجانب بوجه عام حتى اليوم . تلك حادثة من أبلغ حوادث التاريخ الانجليزى فى الدلالة على أن قوة الأمة فى تغلغل روح الاستقلال بين الأفراد وفيما ينشأ عن التربية الاستقلالية من شجاعة واقدام

وانا أورد مثلا آخر أدلل به على ما تربح الأمة من تشبع الفرد بروح الاستقلال . ففى الحادث المتقدم كان العمل شعبياً ، وفى الحادث التالى كان العمل فرديا

فى سنة ١٨٣٩ نجحت انجلترا فى تأليب قوى أوروبا على مصر لتأمن الخطر الذى توهمته من قيام جماعة قوية على ساحلى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط . انتهزت الفرصة السانحة بتهديد الجيوش المصرية الآستانة نفسها فأقنعت طائفة من قوى دول أوربا بالاشتراك معها فى حمل « محمد على » على قبول شروط فرضتها عليه ، وهو الغالب تحد من قوته ، ونجحت بهذا وبث الثورة فى سوريا ضد المصريين فى الاستيلاء على عكا وفى ضرب الجيوش المصرية بسوريا ضربة حاسمة

فلما تم ذلك بعث القائد العام وهو انجليزى ضابطاً بحرياً انجليزياً لاستطلاع قوة المصريين بالاسكندرية ، وأبحر الضابط فاقتنع عند ما وصل المياه المصرية أن من السهل ضرب الاسكندرية ، ولكنه فى نفس الوقت علم من ثقة أن البر يموج بقوة مسلحة تسلحاً عظيما ، وفكر أن الاشتباك مع محمد على بمصر قد يجر إلى مثل موقعة رشيد سنة ١٨٠٧ ورأى أنه من الممكن التفاهم مع محمد على على الشروط التى فرضها المتألبون ورفضها محمد على ، إذا ضمن له الضابط جعل حكومة مصر وراثية ، لما استوثق من ذلك دخل رأساً فى مفاوضات مع محمد على واتفق الطرفان .. ولما أنبأ القائد العام بذلك احتج عليه وأرسل إلى حكومته يحتج ، ولكن الضابط استمسك بوجهة نظره لأنه أيقن بأنه خدم بلاده ودافع عن هذا الرأى لدى الحكومة الانجليزية رأساً وانتصر له وزير الخارجية الانجليزية وأبرم الاتفاق الذى وضع أساسه هو فكان معاهدة لندن سنة ١٨٤٠

والحادث يدل على أن الضابط البحرى لم يفهم أنه مجرد أداة بل فهم أنه عنصر فعال فى بناء مجد أمته . فلما رأى الفرص سانحة انتهزها بالرغم من مخالفة هذا التصرف للواجبات العسكرية فلما لم يرض رئيسه عن هذا لم يرهبه سخط الرئيس ولم ينس غرضه ولم يتقهقر وتغلب رأيه أخيراً

نظر الضابط الصغير كما نظرت حكومته إلى جوهر الموضوع لا إلى شكله ، والحادث بالنسبة للحكومة الانجليزية وبالنسبة للضابط البحرى دليل على تأصل الروح الاستقلالية وعلى عظم أثر هذا التأصل فى صحة الحكم على الأشياء

تلك الروح الانجليزية التى استعرضنا بعض مظاهر عظمتها هى التى أبت عليهم الخضوع لتهديد اسبانيا ، فلم يخرجهم هول قوة الأرمادا « اسم الأسطول الاسبانى » عن رباطة جأشهم وكانت الغلبة لهم ، وهى نفسها التى أبت عليهم الخضوع لنابليون ، وهى التى تلهمهم قبول حكومة المحافظين تارة وقبول حكومة العمال تارة أخرى مع ما بين مبادئ الحزبين من تفاوت ، وهى التى جعلت القاضى الانجليزى مضرب المثل للقاضى الصالح ؛ وهى بالاختصار التى وضعت الانجليز للآن هذا الوضع الممتاز فى التاريخ العصرى

عبر التاريخ

ضربت المثل بالانجليز عامدا لأنا نخاطب القوم اليوم فى تحديد علاقاتنا بهم . وأضرب المثل بالعرب لأنى أكتب هذه الكلمة يوم الاحتفال بمستهل العام الهجرى

نشأ العرب على الحرية والاستقلال لا يشوبهما إلا خضوعهم لأوهام باطلة وعادات مرذولة ؛ فلما تطهرت نفوسهم باعتناق الدين الحنيف تحرروا من قيود العادات والأوهام التى لاتتفق والكرامة الانسانية

إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم من أروع أمثلة التاريخ فى استقلال الرأى والصلابة فى الحق ؛ ولكنه نبى يعمل فى حدود رسالته بما يوحى به الله ، بيد أنه بث فى أصحابه تعاليمه المطهرة للنفس ، والملهمة لروح الاستقلال ، فكان هذا مع نشأة العرب الحرة السبب فى سرعة تقدمهم بعد اعتناق الاسلام

فى أولى غزوات النبى ارتأى وهو فى مركز القائد الحربى أن ينزل بقوته فى نقطة معينة ، ولكن أحد أتباعه اعترض